

المحرص حتى الموت

كان لنا صديق بلغت به الموسوسة في الحفاظ على صحته حدا جعلنا نتابع معظم حركاته وسكناته، لأنها كانت تمثل لنا مادة متجددة للضحك. كان مصراً على غلى ماء الحنفية ، ثم وضعه في زجاجات لكى يشرب منه. وعندما كان يجلس معنا في المقهى أو النادى كان يتجنب شرب الماء تماماً ، ويكتفى بشرب الشاي المغلى ، وأثناء الطعام لم يكن يتناول السلطات على احتمال أكيد بأنها لم تغسل جيداً ، وإذا طلبنا شيئاً أأكله اكتفى بالمشويات وحدها لأنها تطهرت بالنار ، أما الخبز فكان يصر على أن يعرضه الجرسون على النار لكى يتحمص. وفى حقييته كان يحتفظ دائماً بصابونته الخاصة، التى لا يسمح لأحد آخر باستخدامها ، إلى جانب زجاجة كلولونيا يغسل بها يده بعد النزول من المأتوبيس ، لأنه عندما يمسك بالمقابض الموجودة فى سقفه، فإنه يضعها موضع أيد سابقة، قامت بتلويثه. وأحياناً ما كان يتعرض لخدش بسيط من مسمار فى الكرسي، فيصر أن نصحبه لأقرب أجزاخانة لكى يأخذ حقنة تيتانوس. وتبلغ المأساة ذروتها إذا اقتربت من جلستنا قطعة ودبعة ، فنزبت عليها عطفاً ومودة. هنا يقول لنا :

— هل تعرفون أنكم قد حملتم فى أيديكم كمية لا حصر لها من الميكروبات العالقة بها ؟ وهل تعلمون أن القطط المضاللة عبارة عن قنابل تلوث تتجول فى الشوارع لنقل الأمراض والأوبئة ؟ وهل فكرتم فيمن لمس هذه القطعة قبلكم، لعله شخص أجرب، أو مصاب بمرض خطير!

ويظل يؤنبنا بينما نتبادل نحن ملاطفة المقطة ، وربما أعطاها أحدنا - نكاية فيه - بعض الحليب الموضوع على الطاولة أمامنا.

كانت فلسفته أن الصحة ينبغي الحفاظ عليها بكل عناية ، وأن الإنسان لابد أن يتابع درجة حرارته صباحاً ومساءً ، كما ينبغي أن يقيس نبضه مرة كل يوم، ولابد أن يكون له موعد ثابت لنومه في الليل، وأيضا في النهار.

أما فلسفتنا فكانت تقوم على التساهل الشديد في ذلك، على اعتبار أن الصحة كالحياة هبة من الله ، وأن المرض قد يصيب الإنسان بسبب وبغير سبب ، وأن الموت قادم لا محالة، وفي أي وقت . كنا نعلم بالطبع أننا قد نضطر في صحتنا، ولكننا لو عاملنا أجسادنا بأسلوب صاحبنا لتحولنا إلى ممرضين دائمين في غرفة إنعاش !

المهم أنه كان يهزأ من نظرتنا تلك ، وكان يصفنا بالمستهترين، الذين يبذرون أثمن ثروة في خزائهم ، وهي الصحة . وقد مر بنا العمر ، ودارت الأيام. ومرضنا وشفينا، وضحكنا وبكينا ، وتعثرنا ثم قمنا نسير مرة أخرى ، حتى وصل إلينا نبأ وفاة صديقنا الحريص على صحته. وفي سرادق العزاء راح كل منا ينظر في عيون الآخرين لعله يجد إجابة عن السؤال : ماذا أفادته شدة الحرص؟ لكننا لم نتكلم، وخرجنا واجمين. وفي مقهانا المعتاد جلسنا بدون كلمة واحدة. وفجأة أطلقت علينا قطعة صغيرة تتمسح بأرجلنا. حملها أحدنا إلى أعلى المنضدة، وصحنا جميعاً في صوت واحد للجرسون : من فضلك ، هات لها كوب حليب !

* *